﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

[الكهف: 95 - 97]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

القائدُ التّقيُّ يُحقّقُ مصالحَ النّاس ويُحصّنُهم ويُؤثِرُهم بما أفادَ من سواعدِهم

في المقطع السّابقِ عرضَ القومُ - الّذين وجدَهم ذو القرنيْن من دون ذينك الجبليْن - أجرًا عليه مقابلَ أن يبنيَ لهم سدًّا، وجاء هذا المقطعُ، ليحكيَ ردَّه عليهم، بأنّه في غنًى عن أجرهم؛ لما أعطاه الله تعالى وما مكنَّه فيه خيرٌ، وأنّه أجابَهم إلى طلبِهم، وأشركَهم معه في العمل، وشَرَعَ يُقيمُ السّدَّ، بما هُيّئَ له من قوّةٍ خارقةٍ وسلطانٍ عريضٍ، وحيازةٍ للآلات والأدواتِ الّتي تُمكّنُه من ذلك الإنجازِ الفخمِ الشّاهقِ، الّذي لن يُخترقَ ولن يصعدَ أحدٌ على ظهره لتَجاوزِه، فقد صنعَه صناعةً متينةً مسبوكةً بعنايةٍ، وطلبَ منهمُ المشاركةَ في إنجازه، وأن يكونَ لهم شرفُ الإسهام بكلّ ما يملكون من قوّةٍ ورجالٍ وعتادٍ، عساهم يَحصلون على مُبتغاهم، ويَنالون مُرتجاهم، فيَحصلون على هذا السّدِّ المنيعِ، بهذا الإنجازِ الإبداعيِّ البديعِ، الّذي لا ندَّ له ولا نظيرَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَّنِّي﴾: أصلُ (مكن) رسوخ الشيء متجمعًا مِن دِقاقٍ في باطن يلتئم عليه، فالمَكْنُ: بيضُ الضَّبِّ[1]، ثم يُستعارُ منه، فالمَكِنةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مكن).

التَّمَكُّنُ، وهو الرسوخ في باطن، تقولُ العربُ: إنَّ فُلانًا لَذو مَكِنةٍ مِنَ السُّلْطانِ، فسُمّيَ مَوْضِعُ الطَّيْرِ مَكِنةً لتمَكُّنه فيه[1]، والتَّمكينُ: إعطاءُ المَكِنَةِ، وهي القُدرةُ والقوَّةُ، يُقالُ: مَكَّنَ من كذا وتمكَّنَ منه، إذا قَدَرَ عليه، ويُقالُ: مَكَّنَهُ في كذا، إذا جعلَ لهُ القُدرةَ[2]، وفُلانٌ مَكين عند فُلانٍ بَيِّنُ المكانةِ، يعني المنزلةَ[3]، والمقصودُ بالتَّمكينِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ مُتمكِّنًا، أَيْ راسخًا، وهو تمثيلٌ لقوَّةِ التَّصرُّفِ بحيثُ لا يُزعزِعُ قوَّتَه أحدٌ[4]، أي: وهبني الإمكاناتِ الَّتي بها أتمكَّنُ من تنفيذ مطلوبكم.

2) ﴿فَأَعِينُونِي﴾: أصلُ العَونِ المُعاوَنَةُ والمظاهرةُ، يُقالُ: فلانٌ عَوْني، أي: مُعيني[5]، ورَجُلٌ مِعْوانٌ: حَسَنُ المَعونة[6]، وكلُّ شيءٍ استعنتَ به، أو أعانكَ فهو عَوْنُك، وتقولُ: هؤلاءِ عَوْنُك، الذَّكَر والأُنثى والجميعُ سواء، ويجمع أَعوان، وأَعَنْته إعانة، وتَعاونوا أي: أعان بعضُهم بعضًا[7]، والاستِعانةُ طَلَبُ العونِ، والعونُ والإعانةُ تسهيلُ فعلِ شيءٍ يَشُقُّ ويَعْسُرُ على المُستعينِ وحده[8]، وهذا هو المُرادُ في الآيةِ.

3) ﴿رَدْمًا﴾: أصلُ (ردم) يدلُّ على سَدِّ ثُلْمَةٍ[9]، والرَّدْم: مصدر رَدَمتُ الشَّيْء أردُمه رَدْماً، إذا سددته نَحْو الباب وما أشبهه، والرَّدْمُ أيضًا: ما يسقُطُ من الجدارِ إذا انهدمَ، والرَّديمة: ثَوْبان يُخاط بعضُهما ببعض نَحْو اللِّفاق، وكلُّ شَيْءٍ لَفَقْتَ بعضَه الى بعض فقد رَدَمتَه[10]، والرَّدْمُ في الآيةِ معناه: البناءُ المُرَدَّمُ، شُبِّهَ بالثَّوبِ المُرَدَّم المُؤتلِفِ من رقاعٍ فوقَ رقاعٍ، أَيْ سُدًّا مُضاعفًا، ولعلَّه بَنَى جدارين مُتباعدين ورَدَمَ الفراغَ الَّذي بينهُما بالتُّرابِ المخلوطِ ليتعذَّرَ نَقْبُهُ[11].

4) ﴿زُبَرَ﴾: أصلُ (زبر) يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وتوثيقه، يُقال: زَبَرْتُ البئرَ، إذا طويتها بالحِجارةِ، ومنه زُبْرَةُ الحديدِ، وهي القطعةُ منه، والجَمعُ زُبَرٌ[12]، وقيل أصلُ الزُّبَر

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 52.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (مكن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 23.
(5) الراغب، المفردات: (عون).
(6) لسان العرب، (عون).
(7) الخليل، العين: (عون).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 184.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردم).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ردم).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 35.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زبر).

يدلُّ على الاجتماع؛ لأنَّ الزُّبرةَ جملةٌ مُجتَمِعةٌ مِن الحديدِ[1]، ومنه زبرة الأسد لما اجتمعَ منَ الشَّعر على كاهله، ويُقالُ: زبرتُ الكتابَ أي كتبتُه وجمعت حروفَه[2]، واستُعيرَ للمجزَّإ، قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ [المؤمنون: 53]، أي: صاروا فيه أحزابًا[3]، والمقصودُ بالزُّبَرِ في الآيةِ: جَمعُ زُبْرَةٍ، وهي القطعةُ الكبيرةُ منَ الحديدِ[4].

5) ﴿سَاوَىٰ﴾: أَصْلُ (سوي) يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أَي لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ، أَيْ سَواءٍ[5]، والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأْتي بمعنى العَدْلِ والإِنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْنِ: إذا عَدَلت بَيْنَهُما[6]، وهي أيضاً: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ فاسْتَوَى، أَيْ: قَوَّمتُهُ فاسْتَقامَ[7]، والمقصودُ بالمساواةِ في الآية: جعلُ الأشياء متساويةً!، أَي: سَوَّى بينهما حينَ رفَع السَّدَّ.

6) ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾: أصلُ (صدف) يدلُّ على المَيْلِ، يُقالُ: صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ، إذا مالَ عنه ووَلَّى ذاهِبًا، قالَ اللّه تعالَى: ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: 157][8]، والصَّدفُ: كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ عَظيمٍ كالهدَف والحائطِ والجَبَلِ، والصَّدَفُ والصُّدُفُ: مُنْقَطَعُ الجَبَلِ المُرتفِع[9]، قال ابنُ سيدَهْ: الصَّدَفُ ما بَيْنَ الجَبَلَيْنِ[10]، وقالَ ابنُ دُريدٍ: الصُّدُفانِ، بضمِّ الدّالِّ، ناحيتا الشِّعْب أَو الوادي كالصَّدَّيْنِ[11]، ويُقالُ لجانبي الجَبَلِ إذا تحاذيا: صُدُفانِ وصَدَفانِ لتصادُفِهما، أَي: تَلاقيهما وتَحاذي هذا الجانبِ الجانبَ الَّذي يُلاقيه، وما بينهما فجٌّ أَو شِعْب أَو وادٍ، ومن هذا يُقالُ: صادفتُ فُلانًا أَي لاقَيْتُه ووجَدْتُه[12]، والمُرادُ بالصَّدفين في الآية: جانبا الجَبَلَين، وهما السَّدّانِ.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 270، والهروي، الغريبين: 3/ 812.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (زبر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 36.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(7) الجوهري، الصحاح: (سوي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدف).
(9) الجوهري، الصحاح، والصغاني، التكملة: (صدف).
(10) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صدف).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صدف).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدف).

7) ﴿أُفْرِغْ﴾: أَصلُ الإفراغ: الإخلاءُ، يُقالُ: أَفْرَغَ الإناءَ: إذا أَخْلاهُ مِمّا فيه، ووِعاءٌ فارِغٌ، أيْ: خالٍ مِن أيِّ شَيْءٍ[1]، والفَراغُ: الخَلاءُ، والإفْراغُ: الصَّبُّ، يُقالُ: أَفْرَغَ عليه الماءَ، وفَرَّغَهُ إفْراغًا وتَفْريغًا، أيْ: صَبَّهُ، والفَرْغُ والمَفْرَغُ: مَخْرَجُ الماءِ مِن الدَّلْوِ[2]، والمقصودُ بالإفراغ في الآية: الصَّبُّ.

8) ﴿قِطْرًا﴾: أصلُ القِطْرِ مِن القَطْرِ؛ والقَطْرُ: ما قَطَر من الماء وغيره، واحدتُه قَطْرةٌ والجمعُ قِطارٌ[3]، وقُطارةُ الشَّيْءِ ما قَطَر مِنْهُ، وأَقْطَرَ الشَّيءُ حان له أَن يَقْطُرَ، واسْتَقْطَرتُه رُمتُ قَطْرَتَهُ[4]، والقِطْرُ: النُّحاسُ الذّائبُ[5]؛ وذلك أنَّه إذا أُذيبَ قَطَر كما يَقطُرُ الماءُ، وهو المُرادُ هنا.

9) ﴿ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾: الطَّوع هو الانقيادُ والاستجابةُ، يُقالُ: طاعهُ يَطوعُهُ طَوعًا وطاعةً إذا انقادَ معه[6]، وسُمّيَتِ القُدْرةُ استطاعةً؛ كأنَّ الشَّيءَ انقادَ للمُستطيعِ واستجابَ له حتَّى قَدِرَ عليه، وتأتي الاستطاعةُ بمعنى: الإمكانِ، كقولِ: في استطاعته كذا أَيْ في إمكانِه، وضِدُّ الاستطاعة العَجْزُ[7]، واسطاعوا: لغةٌ في استطاعوا، يُقالُ: اسطعتُ الشَّيء واستطَعْتُه"[8]، و"اسطاع الأمرَ: استطاعه، وأطاقه، وقَدرَ عليه"[9]، وأَصله: استَطاعوا بالتّاءِ، ولَكِنَّ التّاءَ والطّاءَ مِنْ مَخْرَجٍ واحِدٍ فحُذِفَتِ التّاءُ ليَخِفَّ اللَّفْظُ"[10]، وذكر الأَخفشُ أَنّ بعض العرب يقول: اسْتاع يَسْتيع فيحذفُ الطّاء استثقالًا، وهو يريد استطاع يستطيع، قال: وبعضٌ يقولون: أَسْطاع يُسْطيع بقطع الهمزة، وهو يريد أَطاع يُطيع، ويجعلُ السّين عِوضًا عن ذهاب حركة العين؛ أَيْ: عين الفعل[11]، والمقصودُ بالاستطاعة في الآية: القُدرةُ.

10) ﴿يَظْهَرُوهُ﴾: أصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، من ذلكَ: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظهَرُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فرغ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرغ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (قطر).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المخصص: 2/ 456.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طوع).
(8) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 67.
(9) عمر، مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (طوع).
(10) الأزهري، تهذيب اللّغة: (طوع).
(11) االفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 520.

ظُهورًا فهو ظاهِرٌ، إذا انكشفَ وبَرَزَ، والأَصلُ فيه كلِّه ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خلافُ بطنِه، وهو يجمعُ البُروزَ والقوَّةَ[1]، ويُطلَقُ الظُّهورُ على الظَّفَرِ بالشَّيءِ، وعلى العُلوِّ، وهو المُرادُ هُنا.

11) ﴿نَقْبًا﴾: أصلُ (نقب) يدُلُّ على فتحٍ في شَيءٍ[2]، والنقْبُ: الخرْقُ والدخولُ في الشيءِ، كالثَّقْبِ في الخَشَبِ، يُقالُ: نَقَبَ البَيْطارُ سُرَّةَ الدّابَّةِ بالمِنْقَبِ، وهو الَّذي يُنْقَبُ به، والمَنْقَبُ: المكانُ الذي يُنْقَبُ[3]، والنَّقْبُ في الآيةِ مُرادٌ بهِ: كَسْرُ الرَّدْمِ، وعدمُ استطاعتِهم ذلك؛ لارتفاعِه وصلابتِه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الزّعيمُ يُشرِكُ جمهورَه في العملِ المطلوبِ لهم فيُشعرُهم بأهميّتِهم

يقول ذو القرنيْن للقومِ الّذين عرضوا عليه الخَرْجَ مقابلَ بنائِه السَّدَّ لهم: "إنّ ما بسطَه اللّه تعالى لي منَ الرّزقِ والمالِ والقوّةِ خيرٌ من خَرْجِكم ومالِكم، الّذي تريدون أن تجعلوه لي في إقامةِ السّدِّ، بينَكم وبين يأجوجَ ومأجوجَ، فوفِّروا عليكم أموالَكم، وقِفوا إلى جانبي فأَعينوني بسواعدِكم، وبآلاتِ البناءِ، وبكلِّ ما أتقوَّى به على المقصودِ، وهو بناءُ السّدّ، لكي أَجْعَلَ بَيْنَكُم وبين يأجوجَ ومأجوجَ حاجزًا حصينًا، وجدارًا متينًا، يحولُ بينَكم وبينَهم"[5]، ناولوني قطعَ الحديدِ لأرُصَّها في جدارِ السَّدِّ، فـ "أعطوه زُبَرَ الحديدِ، فجعل يَبني بها بين الجبلَيْن، حتّى ساواهما، فقال: انفخوا على هذه الزُّبَرِ بالكيران حتّى إذا جعل ذلك المنفوخَ فيه - وهو الزّبر - جمرًا مثلَ النّار في حرّها"[6] "فما استطاعَ يأجوجُ ومأجوجُ وقبيلُهما أن يَعلوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نقب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 38.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 574.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 369.

ويَظهروا عليه؛ لارتفاعِه وملاستِه وما استطاعوا له نقبًا لقوّتِه وسُمكِه، وأراح الله منهم شعوبًا كانت تتألّمُ منهم كثيرًا"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾:

الواجبُ على المسؤولِ تجاهَ أمّتِه حقُّ الحمايةِ على حسبِ الاستطاعةِ

فُصِلتْ جملةُ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، عنِ الكلام السّابق - وهو عرضُهم على ذي القرنيْن ﴿خَرْجًا﴾، مقابلَ بناءِ السَّدّ - لأنّ عَرْضَهم هذا يثيرُ في ذهن السّامع تساؤلًا عن ردّة فعلِه من ذلك العرضِ؛ فجاءت جملةُ: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، جوابًا عن ذلك التّساؤلِ؛ وبهذا يكونُ بين الجملتَين استئنافٌ بيانيٌّ - وهو المعروفُ بشبْه كمالِ الاتّصال، وقد "أجابَهم إلى سُؤلِهم، وحقّقَ لهم بُغيتَهم، ولم يأخذ منهم ما ضمِنوا له منَ الجباية، لمّا رأى أنّ منَ الواجبِ عليه حقَّ الحماية على حسب المكنة"[2]، "وهذا مثالٌ منَ المُثُل العليا في التّعاون على البرّ والتّقوى، ابتغاءَ وجْه ربّه الأعلى"[3]، وفيه "دليلٌ على أنّ الملكَ فرضٌ عليه أن يقومَ بحمايةِ الخلقِ في حفظ بيضتِهم، وسدِّ فُرجتِهم، وإصلاحِ ثغورِهم من أموالِهم الّتي تفيءُ عليهم، وحقوقِهم الّتي تجمعُها خزانتُهم تحت يدِه ونظرِه، حتّى لو أكلتْها الحقوقُ، وأنفذتْها المُؤَنُ، لكان عليهم جبرُ ذلك من أموالِهم، وعليه حسنُ النّظرِ لهم"[4] وهو "رجلٌ مطبوعٌ على حبِّ الخيرِ، ومفطورٌ على الصّالح منَ الأعمال، ومع هذا قد مكّنَه الله تعالى في الأرض، وأعطاه الكثيرَ منَ المالِ والثّروةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بفعلِ القولِ ماضيًا:

ذِكْرُ الأحداثِ الماضيةِ للاعتبارِ والاستفادةِ منها

جاءت صياغةُ الفعل ﴿قَالَ﴾ هنا ماضيًا، موافَقةً لزمن هذا

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/ 437.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 413، والمَكِنَةُ: التَّمَكُّنُ، ينظر: الزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 828.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 60.

الفعلِ المحكيِّ عن ذي القرنيْن، وهو زمنٌ ضاربٌ في عمقِ التّاريخ؛ إذ وقعت تلك الأحداثُ في زمان ذي القرنيْن، قبل زمنِ النّبيّ ﷺ بقرونٍ، والذِّكرُ الحكيمُ هنا يقصُّه على وجْهِه، على النّبيّ ﷺ وأمّتِه لأخذِ العبرِ، والتماسِ الدّروسِ الّتي يمضون عليها في دروبِ الحياة.

دلالةُ ﴿مَا﴾ ومعناها في: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ﴾:

وجْهُ إيثارِ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، أنّها عنصرُ إيجازٍ، تضغطُ جميعَ أنواعِ العطايا والهباتِ الّتي منحَها الله تعالى ذا القرنيْن، ومكَّنَ له بها في الأرض، فهي تستوعبُ جميعَ "ما عنده من عظمة الملكِ، مِن جندٍ وقوّةٍ وثروةٍ"[1] والتّعبيرُ بما، دلالةٌ على كثرة العطاءِ وعمومِه، إذ هي أعمُّ الموصولاتِ، وأدخلُها في الإبهامِ، "وهذا من تأييدِ الله تعالى لذي القرنيْن؛ فإنّه تَهَدَّى في هذه المحاورةِ إلى الأنفعِ الأنزهِ، فإنّ القومَ لو جمعوا له ﴿خَرْجًا﴾ لم يمنعْه منهم أحدٌ، ولَوَكَلوه إلى البنيانِ، ومعونتُهم بالقوّةِ أجملُ به، وأمرٌ يطاولُ مدّةَ العمل، وربّما أرْبَى على المخرجِ"[2].

الموصولُ (ما) عنصرُ إيجازٍ عظيمٍ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿مَكَّنِّي﴾:

جاءت صياغةُ الماضي ﴿مَكَّنِّي﴾ هنا، بإزاءِ الماضي في تمكين الله تعالى إيّاه هناك في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾، وهذا من ذي القرنيْن من جميلِ التّحدُّث بنعمةِ الله تعالى فوافقَه زمنًا ومادّةً؛ فهذا التّمكينُ الّذي يُقرُّ به ذو القرنيْن، قد وقعَ قبْلَ زمنِ النّبيّ ﷺ بقرون، والذّكرُ الحكيمُ هنا يقصُّه على النّبي ﷺ وأمّتِه، لأخذِ العبرِ والتماسِ الدّروسِ الّتي يَمضون عليها في دروبِ الحياة، والمقصودُ بالتّمكين متنوّعٌ، فعلى تأويل الحَسَن، يكونُ قولُه: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ منَ النّبوّة ﴿خَيْرٌ﴾؛ لأنّه يقول: إنّه كان نبيًّا؛ حيث

من حُسنِ الأدبِ مع الله التّحدّثُ بنعمتِه سبحانه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 30.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.

قال له: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أو"ما جعلني فيه مَكينًا من كثرةِ المال واليسارِ، أو "ما يُعطيني اللّه تعالى في الآخرة منَ الثّواب خيرٌ من جعْلِكم في الدّنيا"[1].

دلالةُ تنوّعِ القراءةِ في: ﴿مَكَّنِّى﴾:

وردت للفعلِ ﴿مَكَّنِّى﴾ قراءتان: بالإدغام ﴿مَكَّنِّى﴾، والفكِّ: ﴿مَكَّنَنِى﴾ وهي قراءة ابن كثير[2]، "فمن قرأ ﴿مَكَّنِّى﴾ أدغمَ النّون في النّون لاجتماع النّونيْن، ومَن قرأ ﴿مَكَّنَنِى﴾ بنونَيْنِ أظهرَ النّونيْن، لأنّهما مِنْ كلِمَتَيْنِ: الأولى مِن فِعلٍ، والثّانية تدخل مع الاسمِ المُضمر"[3]، و"الإدغامُ حسُنَ لاجتماع حرفين من جنس واحد"[4].

الـقـراءتـان شـملـتـا نِـعَـمَ التّمكينِ الظّاهرةَ والباطنةَ

دلالةُ التّعبيرِ بالظَّرفيّةِ ﴿فِيهِ﴾:

في تقْييدِ تمكينِ اللّه تعالى ذا القرنيْن بالجارّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾، في قوله: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ تنويهٌ بإحاطتِها إيّاه من كلّ جانبٍ، وشمولِها حياتَه بكلّ اعتبارٍ؛ لأنّ اللّه تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، كذلك في هذا القيدِ ﴿فِيهِ﴾ تنويهٌ برسوخ ذي القرنيْن، في تصريف هذه النّعمِ الّتي أولاه اللّه تعالى إيّاها في أبوابِها الأخصِّ بها، ومعنَى ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ﴾: "ما جعلني فيه مكينًا، من كثرة المالِ واليسارِ، خيرٌ ممّا تَبذلون لي منَ الخَراج؛ فلا حاجةَ بي إليه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النمل: 36]"[5]، و"الضّميرُ في ﴿فِيهِ﴾، يعودُ إلى السّدّ المسؤول بناؤه، وقيل: يعود إلى ﴿مَا مَكَّنِّى﴾ أي: ما مكّني منَ المال والآلاتِ، خير ممّا تبذلونه"[6]، ولا

يجدرُ بالملك أن يتعطّفَ على رعيّته المحتاجين ممّا آتاه الله

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 362.
(2) ابن الجزري، النشر: 1/ 303، وقال الداني: "في مصاحف أهل مكة ﴿مَا مَكَّنَنِى فِيهِ رَبِّى﴾ بنونين، وفي سائر المصاحف ﴿مَكَّنِّى﴾ بنون واحدة"، يُنظر: الداني، المقنع، ص: 108.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 311.
(4) النّحاس، إعراب القرآن: 2/ 307.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 747.
(6) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1305.

تزاحُمَ بين المرجعَين في الضّمير؛ فلا مانعَ من عودته إليهما معًا؛ فيكون فيه ثراءُ الدّلالات مع وجازة اللّفظ.

سرُّ اختيارِ لفظِ الرّبوبيّةِ ﴿رَبِّي﴾ مضافًا:

من صفاتِ الصّالحين التّحدُّثُ بنعمةِ الله تعالى ربِّ العالمين

اصطفَى النّظمُ الكريمُ الاسمَ الكريمَ الأنسبَ لمقامِ التّحدّث بنعمةِ الله، وذلك من أسباب دوامِها ونموِّها عند العبد، تنفيذًا لقوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11]، واستدامةً لأنعُمِه سبحانه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

فائدة صيغة ﴿خَيْرٌ﴾ ومجيئها نكرة:

عطاءُ الله تعالى خيرٌ من عطاءاتِ خلْقِه

﴿خَيْرٌ﴾ في قول ذي القرنيْن: ﴿مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، نكرةٌ أفاد التكثير، وهو اسمُ تفضيلٍ منَ الخيريّة، أي: (ما وهبنيَ الله تعالى من إمكاناتٍ أفضلُ وأكثرُ ممّا تعرضونَه من أجر)، و"خيرٌ منَ الخراجِ الّذي عرضتُموه، أو خيرٌ منَ السَّدِّ الّذي سألتموه، أي: ما مكنّني فيه ربّي يأتي بخيرٍ ممّا سألتم"[1].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي﴾:

من كياسةِ القائدِ إشراكُ رعيّته معه في تنفيذ المهامِّ العِظامِ

الفاء في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي﴾، إمّا أن تكونَ "استئنافيّةً"[2]، أو "فصيحةً"[3] تُفصحُ عن محذوفٍ، تقديرُه: (ما مكنّي فيه ربّي خيرٌ، فسأبْنيه لكم بدون مقابلٍ، وأنتم أعينوني بقوّةٍ)، و"امتناعُه عن أخذ المالِ لا يمنعُ مِن طلب عمّالِ البناءِ والأدواتِ وقِطع الحديدِ؛ ليتقوّى بذلك على تحقيقِ مرادِهم، على أن يدفعَ الأجرَ للعمّالِ، وثمنَ الحديدِ من ماله، على أنّ السَّدَّ لَمّا كان لمصلحتِهم، فإنّ تبرُّعَهم بالقوى العاملةِ، لا يعدُّ عطاءً أو أجرًا على بنائِه، كما أنّ ﴿زُبَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 34.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 232.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.

ٱلْحَدِيدِ﴾، قد تكونُ مِن منجمٍ قريبٍ من السَّدِّ، فإحضارُهم إيّاها لا يُنافي رفضَه أجرًا منهم"[1]؛ لأنّ جهدَه وتكاليفَه إلى جهودِهم وتكاليفِهم لأجلِهم هم بخاصّةٍ.

الغرضُ من التّعبير بالأمرِ ﴿فَأَعِينُونِى﴾:

طلبُ المعونةِ منَ الضّعيفِ يُفعمُه ثـقـةً بـنـفـسِـه ويرفعُ قدْرَه

الأمرُ في قول ذي القرنيْن للقوم ﴿فَأَعِينُونِى﴾ أمرٌ حقيقيٌّ؛ لأنّهم دخلوا تحت إمرتِه، وصار ملِكَهم، وإن لم يكن له ولايةٌ عليهم، فإنّه يأمرُهم أمرًا، يُؤدّي إلى إنجازِ مطلوبِهم، ولأنّه أمرٌ حقيقيٌّ بيّن لهم عقبَه مَقصدَه منه، فقال: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، ومع ذلك لا يَخلو هذا الأمرُ منَ النّصحِ والتّوجيه إلى التّعاونِ على ما فيه خيرُ البلاد والعبادِ، "وهذا تأييدٌ منَ اللّه تعالى لذي القرنيْن في هذه المحاورةِ؛ فإنّ القوم لو جمعوا له خَرْجًا لم يُعنْه أحدٌ ولو وكَلوه إلى البنيان، ومعونتُه بأنفسِهم أجملُ به، وأسرعُ في انقضاء هذا العملِ، وربّما أربى ما ذكروه له على الخَرْجِ"[2].

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

الـقـوّةُ ضـالّـةُ المسلمِ يَلتمسُها في كلّ شيءٍ كما أمرَه الله

الباء في قولِ ذي القرنيْن ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ للاستعانة؛ أي: أعينوني "بِفَعلةٍ وصُنّاعٍ يُحسنون البناءَ والعملَ، وأعينوني بالآلاتِ"[3].

سرُّ التّعبيرِ بالقوّةِ نكرةً ﴿بِقُوَّةٍ﴾:

طلبُ العونِ على سبيل التّعظيمِ تهييجٌ لهم لبذلِ أقصَى قوّتِهم

تنكيرُ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ في قوله: ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾، يفيدُ تعظيمَ القوّةِ المطلوبةِ، أي: (أعينوني بقوّةِ الأبدان، وبعملٍ منكم بالأيْدي)[4] – لأنّ الأمرَ كبيرٌ، ولا تُجدي معه قوّة ضعيفةٌ، أي: (بما أتقوّى به[5] على إقامة السّدِّ المنيعِ، وبعملٍ تعملونه معي لا بمالٍ)[6]، وتنكيرُ قوّة

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 925.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 60.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 320.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 542.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 208.
(6) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 311.

هنا، يتّسقُ مع تنكيرها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿أَجْعَلْ﴾:

القائدُ المُلهِمُ يُحفّزُ على إنجازِ المطلوبِ في الوقت المرغوبِ

في التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿أَجْعَلْ﴾، استحضارٌ لصورة الإنجازِ كأنّها تُعاينُ، وذلك حافزٌ لهم على مدِّه بالقوّةِ المطلوبةِ، وهكذا يُحفّزُ القائدُ رجالَه ومن يُمكنُه استثمارُ طاقاتِهم والإفادةُ منهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ مُكررَّةً ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾:

التّحديدُ الدّقيقُ لتنفيذِ المطلبِ تطمينٌ للطّالبين

جاء تَكرارُ ذي القرنيْن الظّرفَ (بين)، في قوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾، بإزاءِ قولِهم أوّلًا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾، تطمينًا لهم، وتأكيدًا على تحديد المهمّةِ بتفاصيلها كما يريدون هم، والضّمائر في قوله: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ إلى المخاطَبين - القومِ الّذين لا يكادون يفقهون قولًا، في الظّرفِ الأوّل ﴿بَيْنَكُمْ﴾، وإلى يأجوجَ ومأجوجَ في الظّرفِ الثّاني ﴿وَبَيْنَهُمْ﴾، وهو يحقّقُ الإشارةَ إلى توسيطِ مكان السّدِّ المطلوبِ بناؤه؛ ممّا يحقّقُ الطّمأنينةَ لهم؛ إذ هو عينُ مطلبِهم، وإلّا لاكتفى بالرّدّ المختصرِ: فأعينوني بقوّة أُنشِئه لكم، بدون ظروفٍ ولا تَكرار.

غرضُ تنكيرِ المفعولِ به ﴿رَدْمًا﴾:

تواضعُ القائدِ يُميّزُه عند عبادِ اللهِ، ومَن تواضعَ لله رفعَه الله

في تنكير المفعولِ به تعظيمٌ، يلائمُ دفعَ الشّرِّ الكبيرِ، وفي تأخيرِه عنِ الظّروفِ عنايةٌ بالمقدّم، وتشويقٌ لهم "الرّدمُ أبلغُ منَ السّدِّ، إذِ السّدُّ كلُّ ما سُدَّ به، و(الرّدمُ) وضْعُ الشّيءِ على الشّيء، من حجارةٍ أو ترابٍ أو نحوِه، حتّى يقومَ من ذلك حجابٌ منيعٌ"[1]، و"﴿رَدْمًا﴾؛ أي: حاجزًا حصينًا موثقًا"[2].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 542.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 227.

سرُّ فصلِ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾:

بيانُ أنّ طرقَ الإعانةِ تعجيلٌ بتطبيق العونِ

فُصِل قولُ ذي القرنيْن: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾، عن قوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ لكمالِ الاتّصال بينهما؛ حيث إنّ الثّاني ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾، من الأوّل ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بمنزلةِ بدلِ الاشتمال؛ فإيتاؤهم إيّاه زُبَرَ الحديدِ من جملة إعانتِهم إيّاه بقوّة؛ فلم يحتاجا إلى واصلٍ يصلُهما، وإنّما اتّصلا ذاتيًّا بلا واسطةِ حرفِ الوصل، وفيه تعجيلٌ بتطبيق العونِ.

غرضُ التّعبيرِ بالأمر: ﴿ءَاتُونِي﴾، وفائدة تنوّع القراءات:

التماسُ الإتيانِ بالآلةِ من متطلّباتِ العملِ

الأمرُ في قوله: ﴿ءَاتُونِي﴾، من الإيتاء، بمعنى: أعطوني وناولوني[1]، يفيدُ الالتماسَ؛ وهذا كلّه إنّما هو استدعاءُ العطيّةِ الّتي ليست بمعنَى الهبةِ، وإنّما هو استدعاءٌ للمناولة[2].

وقد جاء عن شعبة القراءةُ بـ﴿ٱئۡتُونِي زُبَرَ﴾ بسكون الهمزة والقصر، فيكون المعنى من الإتيان والمجيء، أي: (جيئوني بزُبر الحديد) فاختصّت بالمعونة فقط دون أن يكون سؤال عين ذا هبة - كما يوهمه معنى الإعطاء والإيتاء -.

الحاجة إلى استنفاذ جميع ما يعاينونه من موادّ

والأصل أن يَصِل فعل الإتيان إلى المفعول الثاني بحرف الجرّ (الباء)، ثم يجوز أن يُحذف الحرف اتّساعًا، فيصل الفعل إلى المفعول الثاني على حدّ: (أمرتك الخير) [3]، فيكون انتصاب ﴿زُبَرَ﴾ بنزع الخافض تشبيهًا له بالمفعول به، وتضمينًا له معنى فعل الإيتاء والمناولة المؤدي إلى نصب مفعول ثانٍ، وليفيد استغراق ما يملكون من زبر الحديد، احتراسًا عمّا قد يضيفه حرف الجر (الباء) من معاني التبعيض.

بلاغة الإيجاز بالحذف في جملة: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾:

في جملةِ ﴿ءَاتُونِي﴾ إيجازٌ بحذف مقدّرٍ؛ حيث حُذف تقدير

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 369.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 60.
(3) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/176.

مقتضى الأمر لفهمِه منَ السّياق، والتّقديرُ: (أحضِروا لي الكثيرَ من قطع الحديدِ الكبيرةِ، فأحضَروا له ما أراد)[1]، (فلمّا أحضَروها له، أخذ يبني شيئًا فشيئًا[2]، حتى ساوى بين الصدفين)، ومن قيمِ هذا الحذف تحريكُ الذّهن ليُكْمِل ما سكتَ عنه الأسلوبُ، فتحصلُ له اللّذةُ، ويتمكّنُ منه المعنَى.

تحريكُ الذّهنِ ليُكملَ العبارةَ تحصلُ به المتُعةُ ويتمكّنُ المعنَى

سرُّ إسنادِ الفعل لواو الجمعِ في: ﴿ءَاتُونِي﴾:

المخاطَبون بالأمر في قول ذي القرنيْن: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ هم القومُ الذين طلبوا منه أن يجعلَ بينهم وبين يأجوجَ ومأجوجَ سدًّا؛ وإسنادُ الفعل إلى ضميرٍ دلالةٌ على كثرة العملِ المطلوبِ وهو متّسقٌ مع طلب المعونةِ؛ لأنَّه " كان يَستدعي عَمَلَةً كثيرين، فقال لهم: فأعينوني بقوّةٍ أي بقوّةِ الأبدان، أراد تسخيرَهم للعمل لدفعِ الضّرّ عنهم"[3].

الجهدُ الكبيرُ والعملُ يحتاجُ إلى عَمَلَةً كثيرين لإنجازِه

سرُّ تخصيصِ المفعولِ به ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾:

"تخصيصُ الأمر بالإتيان بها - أي: زُبَر الحديد - دون سائرِ الآلاتِ منَ الفحم والحَطبِ وغيرِهما؛ لأنّ الحاجةَ إليها أمسُّ؛ لأنّها الرّكنُ في السّدّ، ووجودُها أعزُّ"[4] "ولا شكّ أنّ الحديدَ لم يكن هو كلَّ مادّةِ البناء الّتي بنَى بها (الرّدمَ)، وإنّما كان هو العنصرَ القويَّ فيها، بل هو كذلك العنصرُ الغريبُ، غيرُ المألوفِ في البناء؛ ولهذا اختُصّ بالذّكر ... وهناك الأحجارُ، والرّمالُ، وغيرُها ممّا اتُّخذَ في مادّة البناء مع الحديد، والّتي بها أمكنَ تسويةُ السّدّ، وإلّا لو كان السّدُّ حديدًا خالصًا لاحتاج إلى ما لا تحتملُه الطّاقةُ البشريّةُ، وخاصّةً في هذا الزّمن البعيد، مع تلك الوسائلِ البدائيّةِ المحدودةِ للحصول عليه"[5].

البدءُ بأهمِّ العناصرِ آيةٌ على توفيقِ القائدِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 574.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 574.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 35.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 307.
(5) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 709.

سرُّ الإضافةِ في: ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾:

الذّكرُ الحكيمُ يوجّه بأنّ الحديدَ عنصرٌ أساسٌ في تماسكِ البناياتِ

"الزّبرةُ منَ الحديد القطعةُ الضّخمةُ"(1)، وسرُّ الإضافةِ التّخصيصُ، ويدخلُ في بناء السّدّ كثيرٌ منَ الأنواع، وهذا النّوعُ ﴿ٱلۡحَدِيدِۖ﴾، هو أقواها، وأشدُّها، وتعريفُه يوجِّه القومَ نحو تخيُّر النّوعِ الأجودِ منه؛ فهو أنواعٌ منها ما يقبلُ الطّيَّ، ومنها ما يقبلُ الكسرَ، ومنها الصُّلبُ الّذي لا يقبلُ هذا ولا ذاك، وهو الّذي يمسكُ السَّدّ، فلا يكونُ عُرضةً للانهيار تحت أقدام يأجوجَ ومأجوجَ.

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وتقديرُ المحذوفِ في السّياق:

العبدُ الصّالحُ انتهى في عمله إلى أقصى درجاتِ الإتقان

تفيدُ حتّى في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾، بلوغَ هذه الدّرجةِ من ارتفاع السدِّ؛ فـ "حتّى حرفُ غايةٍ وجرٍّ"(2)، يصرّحُ بأنّ ذا القرنيْن أكملَ العملَ على الوجه الأتمِّ، وأتقنَه إتقانًا بالغًا، وهكذا العبدُ الصّالحُ يُتقنُ عملَه حتى ينتهيَ إلى أقصى درجاتِ الإتقان.

دلالةُ الحذْفِ البلاغيِّ لجواب الأمرِ في ﴿ءَاتُونِيٓ﴾:

الإيجازُ بالحذفِ من أبلغِ البيان

لقد "أشعرت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بشيءٍ مُغَيًّا قبلَها، وهو كلامٌ محذوفٌ تقديرُه: فآتوه زُبَر الحديد فنضّدها وبناها، حتّى إذا جعلَ ما بين الصّدفين مُساويًا لعلوِّ الصّدفين، وهذا من إيجاز الحذفِ"(3)؛ الّذي يُصفّي العبارةَ، ويَستفزُّ الذّهنَ المتلقّيَ ليكمل الكلامَ، ويفسحَ مجالاتِ تقديرِ المحذوف.

دلالةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

إتقانُ العملِ مبدأٌ إسلاميٌّ كبيرٌ ومقصدٌ إيمانيٌّ نبيلٌ

قيّدَ النّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿سَاوَىٰ﴾ بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ تأكيدًا على تحقّقِ الفعل، وأنَّه فعلًا ساوى ارتفاعَ السّدّ بقِمَّتَي الجبلين، أي: أتقن عملَه أتمَّ ما يكونُ الإتقان، وهذا مبدأُ الدّين في أتباعِه.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 369.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 29.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.

دلالةُ إيثارِ الفعل ﴿سَاوَىٰ﴾:

"المساواةُ جعلُ الأشياء متساويةً - أي متماثلةً - في مقدارٍ أو وصفٍ"[1]، ويدلّ التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿سَاوَىٰ﴾، على تنظيم ذي القرنيْن خطواتِ إنشاء السّدِّ؛ بحيث لا يبدأُ في مرحلة منه إلّا بعد التّحقُّق من تمامِ المرحلةِ السّابقةِ ... وكذلك هنا لم يبدأْ ذو القرنيْن الخطوةَ التّاليةَ لمساواة البناءِ رأسَي الجبلين - وهي إفراغُ القطر عليه - حتّى تحقَّق من تمامِها، وهذا التّنظيمُ منَ القائد يعلّمُ الرّعيّةَ - قطعًا - منهجَ العملِ النّاجحِ السّديدِ، والتّعبيرُ بالمساواة، فصيحٌ في تنسيق السّدّ تنسيقًا يحولُ دون أن يجاوزَه يأجوجُ ومأجوجُ إلى القوم، فقد اتّخذ ذو القرنيْن من إجراءاتِ الإنشاءِ السّديدةِ ما "وارى رؤوسَهما، وسوّى بينهما"[2]، وتلك الإشاراتُ الدّقيقةُ تدلُّ على ما أنفقَه ذو القرنيْن والقومُ معه من جهود، ومن مالٍ، ومن وقتٍ، ومن غيرِ ذلك حتى تمَّ الأمرُ على أفضلِ ما يتأتّى لأحدٍ في زمانه.

تنظيمُ القائدِ خطواتِ العملِ يدرّبُ الرّعيّةَ على المنهجِ السّديدِ

غرضُ حذفِ مفعول ﴿سَاوَىٰ﴾:

حُذِف مفعولُ ﴿سَاوَىٰ﴾ منَ العبارة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ " يعني البناءَ، فحُذف لقوة دلالة الكلامِ عليه"[3]. فما يدركُه العقلُ يُحذفُ إعلاءً لخطابِ التّدبّرِ.

سرُّ التّعريفِ في قوله: ﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ هنا للعهد، أي: صدفَي الجبلين اللّذين بنى ذو القرنيْن بينهما السّدَّ[4]، وكلُّ واحدٍ من الصدفين محاذٍ لصاحبِه، مأخوذٌ منَ المصادفة في اللّقاء، وكذلك هما جبلان؛ كلُّ واحدٍ منهما منعزلٌ عنِ الآخر، كأنّه قد صدَف عنه، ثمّ فيه وجهان: أحدُهما:

الـلّامُ دلالاتُـها غزيرةٌ ومعانيها أثيرةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 343.
(3) الإبياري، الموسوعة القرآنية: 10/ 265.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 362.

أنّ الصّدفين اسمٌ لرأسَي الجبلين، والثّاني: اسمٌ لما بين الجبلين[1]، و"لا يقال للواحد صدفٌ، وإنّما يقال صدفان لاثنين؛ لأنَّ أحدَهما يصادفُ الآخرَ"[2]؛ "فهو منَ الأسماء المتضايفةِ كالشّفعِ والزّوجِ"[3].

سرُّ المغايَرةِ بين ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ إلى ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾:

المغايَرةُ تُكسب بعضَ المعاني لطرقِ التّعبيرِ

المغايَرةُ في الآيات بين ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ إلى ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، تحقّقُ الاتّساقَ الدّقيقَ؛ إذِ "الصَّدَفُ: جانبُ الجبل ... والصّدفان اسمٌ لمجموع الجانبين، مثل المقصّان لما يُقْطَعُ به الثّوبُ ونحوُه"[4]؛ فحين كان الحديثُ عنِ الجبلين سمّاهما الذّكرُ الحكيم ﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، وحين كان الكلامُ عن جانبَيْهما وسَفْحَيْهما سمّاهما ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، حتّى وإن أريد بالصّدفين السَّدّان، فيكونُ مِن تسميّة الشّيء باسم جُزئه؛ إذِ الصّدفان على هذا القول جُزآ الجبلين، وفي ذلك تنويعٌ وتفنّنٌ في الكلام.

بلاغةُ الحذفِ البلاغي بعد قوله: ﴿سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾:

حوادث بناء السدّ أوجزها النظم القرآني بأقصر العبارات

إنّ ذا القرنين بعد أن ساوى بين الصّدفين وضعَ المنافخَ على الحديد "حتّى إذا صار كالنّار صَبَّ النُّحاسَ المذابَ على الحديد المحمّى؛ فالتصق بعضُه ببعض، وصار جبلًا صَلدًا، وهذا معجزٌ قاهرٌ؛ لأنّ هذه الزُّبَر الكثيرةَ إذا نُفخ عليها حتى صارت كالنّار لَم يقدر الحيوانُ على القُرب منها، والنفخُ عليها لا يمكنُ إلّا مع القُرب منها، فكأنّه تعالى صرف تأثيرَ تلك الحرارةِ العظيمةِ عن أبدان أولئك النّافخين عليها"[5]، وفي ذلك - والواقع جارٍ به - أنَّ اللّه تعالى يعينُ عبادَه على معالجة أمورِهم على قدْرِ استطاعتِهم، ويحملُ عنهم ما زاد، ويعفو عن كثيرٍ.

(1) الماورديّ، النكت والعيون: 3/ 343.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 543.
(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.

سرُّ التّعبير بفعل الأمرِ ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ مع واو الجماعةِ:

مخاطبةُ القائدِ عوامَّ النّاسِ تربيّةٌ للثّقة في نفسِ الضّعفاء

"الخطابُ في قوله: ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ وقولِه: ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ خطابٌ للْعَمَلَةِ"[1]، وبه يعالجُ ذو القرنيْن نفسيّةَ آحادِ القوم الضّعفاءِ، وتنويه بأهمّيّة بثِّ العزم والعزيمة في نفوسِهم، وإفعامُ كلِّ واحدٍ منهم بالثّقة، وأنّه عنصرٌ فاعلٌ في تعمير المجتمع، وأنّ دورَه لا يقلُّ عن أدوار الباقين كبارًا كانوا أو صغارًا، وذلك أسلوبٌ تربويٌّ مهمٌّ في تربية الثّقةِ وتنميتِها في نفوس هؤلاء الضّعفاءِ.

غرضُ حذْفِ متعلّقِ الفعل ﴿ٱنفُخُوا۟﴾:

مراعاةُ التّرتيب الصّحيحِ في خطواتِ العملِ يضمنُ له النّجاحَ

"حُذف متعلّقُ ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ لظهوره؛ مِن كونِ العملِ في صُنْع الحديد، والتّقديرُ: (انفخوا في الكيران)، أي: الكيرانِ المصفوفةِ على طول ما بين الصّدفين من زُبَر الحديدِ"[2]، و﴿ٱنفُخُوا۟﴾ "النّارَ على هذه القطعِ الكبيرةِ منَ الحديد"[3]؛ "لتسخينِ هذه القطعِ منَ الحديد وتلْيينِها، ففعلوا ما أمرَهم به"[4]، "ولا شكَّ أنّه أمرَهم بوضع الوقودِ وإشعالِه قبل أمرِهم بالنّفخ فيه، وأنّ الأمرَ بالنّفخ قرينةٌ على ذلك"[5].

دلالة مجيء ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في السّياق:

بيانُ إتقانِ ذي القرنيْن العملَ إلى أعلى درجةٍ ممكنةٍ

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ حرفٌ يدلُّ على "غاية النّفخ"[6]، وأنّ بلوغَ التّسخين إلى هذه الدّرجة الّتي يشبهُ فيها الحديدُ النّارَ هي الّتي سمحت له بالخطوةِ التّالية، و"هذه العبارةُ مترتّبةٌ على كلامٍ مقدّرٍ مفهومٍ منَ المقام، فكأنّه قيل: ففعل العُمَّالُ ما أمرَهم به ذو القرنيْن منَ النّفخ في الوَقود المشتعلِ بين قطَعِ الحديد، حتّى إذا جعل السّدَّ يُشبهُ النّارَ في شكلِه وفي حرارتِه، قال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 37.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 575.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 925.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 30.

لعُمّاله الّذين يقومون بإذابة القطر - وهو النّحاسُ أوِ الرّصاصُ أوِ الحديد - قال لهم: أحضروا القطرَ الّذي صهرتُموه وأذبتُموه لأُفرغَه على السّدّ، فأحضروه له فأفرغَه عليه، فسُدّت به الثّغراتُ الّتي كانت بين قِطَع الحديد، بعد أن تمّ احتراق الوقود الّذي بينهما، والتصق بعضُها ببعض أشدَّ التصاقٍ"[1].

سرُّ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

العملُ المعلّقُ على بعضِه يقتضي تحقُّقَ الخطوةِ الّتي تسبقُ ما بعدَها

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، نلاحظُ أنّه ممّا يُقَرِّرُ تَحقُّقَ ذي القرنيْن من بلوغ كلِّ مرحلة من مراحل تشييدِ السّدّ أعلى درجاتِ إتقانها - إيثارُ النّظمِ الكريمِ التّقييدَ بـ ﴿إِذَا﴾ القاطعةِ، دون (إن) المشكِّكةِ، فلم يطلبْ إفراغَ القطر عليه إلّا بعد القطْعِ بانصهارِه وبلوغِه مرحلةَ التّشبُّه بالنّار.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في إسناد الجعْلِ إلى ذي القرنيْن:

أثرُ القائدِ في توجيه الأمّةِ يجعلُه كأنّه هو المُنجِزُ لما وجَّههم إلى فعْلِه

في إسناد جَعْلِ زُبَر الحديد نارًا إلى ذي القرنيْن مجازٌ عقليٌّ إسناديٌّ، في قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ﴾، "لكونِه الآمرَ بالنّفخ"[2]، "فلمّا كان ذلك يتمُّ بأمره وإرشادِه، أسندَه إليه على سبيل المجازِ"[3]، وعلى الرّغم من أنّ الّذين جعلوه نارًا بنفْخِهم، همُ العَمَلةُ الّذين تسبَّبوا في جعله نارًا بنفْخهم - غيرَ أنّ السّببَ الرّئيسَ في كلّ ذلك هو المديرُ الأعلى ذو القرنيْن، الّذي لولا قدومُه، وحسنُ إدارته، وثاقبُ فكره، ما كان لهذا السّدّ أن يكونَ، ولا أن يكونَ على هذه الصّفةِ منَ القوّةِ العظيمة.

بلاغةُ التّشبيه في قوله: ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾:

قَصصُ القرآن يعلّمُ النّاسَ أصولَ الحِرَف ومناهجَ العملِ

شَبَّه النّظمُ الكريمُ زُبَرَ الحديد، وقِطعَه الكبيرةَ، الّتي أوقدَ عليها حتّى احمرّت بالنّار بجامع شدّةِ الاحمرار، والالتهابِ واللّيونةِ، أي:

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 924.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 369.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 925.

لا زالوا ينفخون فيها "حتّى إذا صارت كالنّار في احمرارِها وشدّةِ توهّجِها"[1]، وصارت "لينًا كالنّار في الحرّ واللّهبِ"[2]، وفي "حرارتِها وهيئتِها، قال: أحضروا لي نحاسًا مُذابًا؛ لكي أفرغَه على تلك القطَعِ منَ الحديد؛ لتزدادَ صلابةً ومتانةً وقوّةً، وهذا يعني أنّه بُني "بطريقةٍ محكمةٍ سليمةٍ، اهتدى بها العقلاءُ، في تقويّة الحديد، والمباني في العصرِ الحديثِ"[3].

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿نَارًا﴾:

بلوغُ السّابقين الذّروةَ في العلمِ والحضارةِ والحكمةِ

تنكيرُ المشبَّه به في جملة ﴿جَعَلَهُۥ نَارًا﴾، يدلُّ على بلوغ تسخينِ زُبَرِ الحديد، وتوهّجِها مبلغًا كبيرًا، حتّى صيّرها نارًا مَهولةً منكورةً مستفظعةً، وهنا سؤال: "كيف يستطيعُ العمّالُ أن ينفخوا في السّور قريبًا منه، دون أن يحترقوا بناره، وكيف يُفرِغون عليه النُّحاسَ المذابَ مع حرارتِه الشّديدةِ، وناره المتَّقدةِ، وارتفاعِه العظيم، وثخانتِه البالغةِ خمسين ذراعًا على ما قيل؟ والجوابُ: أنّه لا بدّ أن يكونَ ذو القرنيْن قد وصل إلى حلٍّ لهذه المشكلاتِ، بحيث يُمكنُه تحقيقُ بنائه على النّحو الّذي تحدَّث به القرآنُ العظيمُ عنه، دون إضرارٍ بأحد العاملين فيه، وكما أنّ العِلم في عصرنا حَلَّ مشكلاتٍ كثيرةً، فالعلمُ والحضارةُ والحكمةُ عند هؤلاء القدماء بلغتِ الذّروة، فلا بدّ أنّهم استعملوا آلاتٍ وطُرُقًا عِلميّةً لم يصل بعدُ أحدٌ إلى معرفتها، ولا تكاد العقولُ تُصدِّقها، ما لم تعرِفْ ما كان عليه هؤلاء العظماء، منَ العلم والحكمةِ والإبداعِ، وما معجزةُ بناءِ الأهرام عنّا ببعيدةٍ عنِ العيون والأبصار، وكم لله تعالى في خلقه من آياتٍ وعظاتٍ"[4].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 574.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 343.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 575.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 925.

دلالةُ تنوّعِ القراءاتِ في: ﴿ءَاتُونِيٓ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ في الكلمةِ الواحدةِ ثراءٌ للنّظمِ الكريمِ

وردت كلمة ﴿ءَاتُونِيٓ﴾ في الآية مرّتين، فأمّا الموضع الأول فقد ورد ثَمّ، وذُكِر ما فيها من قراءة، وأمّا الموضع الثاني فقد قرأ جمهور القراء العشرة إلا شعبة في بعض طرقه وحمزةُ[1]: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾، بالمدّ في ﴿ءَاتُونِيٓ﴾، بمعنى: (أعطوني قطرًا أُفرغْه)، ونُصِب ﴿قِطۡرٗا﴾ في هذه القراءة بـ ﴿أُفۡرِغۡ﴾، والمفعول الثاني للإيتاء محذوف، والتقدير: (آتوني قطرًا أفرغ عليه قطرًا)، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وقرأ حمزة وشعبة بخلاف عنه بسكون الهمزة: ﴿قَالَ ٱئۡتُونِيٓ أُفۡرِغۡ﴾، من الإتيان، بمعنى: جيئوني مُعينين، فهو غير متعدٍّ إلى مفعول[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿أُفۡرِغۡ﴾:

صيغةُ المضارعِ تَستحضرُ الحدثَ كأنّ النّفسَ تُعاينُه

التّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿أُفۡرِغۡ﴾ يَستحضرُ في الذّهن صورةَ الإفراغ، كأنّه واقعٌ تعاينُه النّفسُ، كذلك تفيدُ صيغةُ المضارعةُ التّجدّدَ المستمرَّ، أي: هدوءُ الإفراغ وتواليه شيئًا فشيئًا؛ بحيث يُتاح له وقتٌ يسمحُ ببرودِه والتئامِه على جدار السّدّ على مهلٍ، أما صَبُّه مرّةً واحدةً فيتناقضُ مع فكرة الإبرادِ، خلال وقتِ الإفراغ، وقد فسّر العلماءُ الإفراغَ بالصَّبّ تجاوُزًا، فقالوا في ﴿أُفۡرِغۡ﴾ "أي: أَصبُّ عليه قطرًا"[3].

مرجعُ الضّميرِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ ودلالتُه:

انسباكُ قِطعِ الحديدِ بعدَ الصّهرِ بالقِطرِ

الضّميرُ في ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ﴾ يرجعُ إلى ﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ وقِطَعِه الّتي رصَّها ذو القرنيْن في جِدار السَّدّ، وكان القصدُ من إفراغِ القطر عليه، أنْ يلتئمَ ويتماسكَ، ولا يتأثّرَ بالزّلازل وغيرِها، فيكونَ مانعًا لخروج يأجوجَ ومأجوجَ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 315.
(2) النّحاس، إعراب القرآن: 2/ 307.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 208.

نُكتةُ تنكيرِ المفعولِ به ﴿قِطْرًا﴾:

التّكثيرُ مناسبٌ لحجمِ السّدِّ وقوّتِه في حجْبِ العدوّ

تنكيرُ ﴿قِطْرًا﴾ يفيدُ تهويلَه، وتعظيمَ أثرِه في تماسك السَّدِّ، وتكثيره، و﴿قِطْرًا﴾ مفعولٌ "منصوبٌ بـ ﴿أُفْرِغْ﴾، والتّقديرُ: (آتوني قطرًا أُفرغْ عليه قطرًا)، فحُذفَ الأوّلُ لدلالة الثّاني عليه"[1]، وقد حقَّقَ الحذفُ ترابُطَ النّصّ، وتصفيّةَ العبارةِ، وتحاشيَ التّكرارِ.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَمَا﴾ في السّياق:

إتقانُ العملِ نتائجُه باهرةٌ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ "عاطفةٌ على محذوفٍ، أي: فجاء قومُ يأجوجَ بعد أن أنهى بناءَه وتسويتَه يُحاولون أن يَعلوه، أو يَثقبوه فما اسطاعوا"[2]؛ "لشدّة ارتفاعِه وملاستِه، وما استطاعوا له خرقًا لصلابتِه وغِلظِه"[3]، وتلك الجملةُ إشادةٌ قرآنيّةٌ بالعملِ المتقَنِ، وقد قال الرّسولُ ﷺ: "إنَّ اللّهَ جَلَّ وعَزَّ يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحَدُكُم عَمَلًا أنْ يُتْقِنَهُ"[4].

دلالةُ ﴿فَمَا﴾ في السّياقِ المُحكَم:

العملُ المُتقَنُ يَستعصي على الاختراقِ بصفةٍ دائمةٍ

﴿فَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ نافيةٌ، تُقرِّرُ عجْزَ يأجوجَ ومأجوجَ عن التّعاملِ مع هذا السّدّ المنيعِ، وتفيدُ بطريق اللُّزوم الكنائيِّ أنّه بلغَ منَ القوّة والارتفاعِ والملاسةِ ما لا يمكنُ معه اقتحامُه، وأنّ القوم قد صاروا به آمنين من شرّ أولئك المُعتدين.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ محذوفَ التّاء:

الفعلُ (اسطاعوا) ومشتقّاتُه آيةٌ من آياتِ البلاغةِ القرآنيّةِ

إسقاطُ التّاء منَ الفعل ﴿ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ آيةٌ من آياتِ الإعجازِ بالجرس الصوتي في هذا الموضع، ذلك أنّ السّياقَ هنا قد صوّرَ ظاهرَ السّد ناعمًا أملسَ، وأنّ باطنَه حديدٌ مُصْمَتٌ؛ وأنّ تعاملَ يأجوجَ ومأجوجَ معه، سيكون تصرّفًا منِ اثنين لا ثالثَ لهما: فإمّا أن يحاولوا تسلُّقَه،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 748.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 30.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 924.
(4) البيهقي، شُعب الإيمان، الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها: 7/ 234، برقم (4931).

والصّعودَ عليه، ثمّ النّزولَ منَ الجهة الأخرى على القوم المظلومين – وهذا هو التّصرُّفُ الأيسرُ عليهم –، وإمّا أن ينقُبوه ويثقُبوا فيه أبوابًا، يمرّون منها إليهم، "ومن خصائص مخالفةِ مقتضى الظّاهر هنا إيثارُ فعل ذي زيادةٍ في المبنى، بموقع فيه زيادةُ المعنى، لأنّ استطاعةَ نقْبِ السّدّ أقوى منِ استطاعة تسلُّقه، فهذا من مواضع دلالةِ زيادةِ المبنى على زيادةٍ في المعنى"[1]، والمعنى: "فما قدروا أَنْ يَظْهَروهُ، يعني: أن يعلوا فوق السّدّ، وما اسْتَطاعوا لَهُ نَقْبًا، أي ما قدروا على نقبِ السّدّ"[2]، و"ما قدروا على الصّعودِ عليه، لأجل ارتفاعِه وملاستِه"[3].

دلالةُ الضّميرِ في الفعل ﴿ٱسْطَٰعُوا۟﴾:

الـعـدوُّ شـديـدُ الخطورةِ يدفعُه التّحصينُ المُتْقَنُ

الضّميرُ في الفعل ﴿ٱسْطَٰعُوا۟﴾ يرجعُ إلى يأجوجَ ومأجوجَ، فما قدروا أن يعلوا السّدَّ ويتسلَّقوه؛ لأنّهم كلّما حاولوا انحدروا، وتزحلَقوا[4]، وما استطاعوا له نقبًا ولا ثقبًا في أسفلِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَظْهَرُوهُ﴾:

محاولةُ الأعداءِ المُتجدّدةِ تقتضي يقظةً متجدّدةً

التّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَظْهَرُوهُ﴾، يدلُّ على أنّهم حاولوا تسلّقَ السّدّ كثيرًا، وجدَّدوا المحاولاتِ، ونوَّعوها، وتفنّنوا فيها دون جدوَى؛ ووراء ذلك كنايةٌ عن شدّة إتقانِ تشييدِ السّدّ، وذلك بدوره يعكسُ ما لدى ذي القرنيْن من دقّة العملِ، وحُبّ الخيرِ، ومراقبةِ الحقِّ ﷻ وأوثرَ التّعبيرُ بأنْ والفعلِ، على التّعبيرِ بالمصدرِ لظهور المحاولةِ والإصرارِ عليها.

مرجعُ الضّميرَيْن في الفعل ﴿يَظْهَرُوهُ﴾:

السّـدُّ حمَى المؤمنين منَ الأعداء وكان لهم حصنًا حصينًا

في الفعل ﴿يَظْهَرُوهُ﴾ ضميران: ضميرٌ فاعلٌ، وهؤلاء هم يأجوجُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 38.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 362.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.
(4) "تزحلقَ يتزحلق، تزحلُقًا، فهو مُتزحلِق، تزحلق الشَّخصُ: انزلق على الجليد أو الماء، نزل في انحدارٍ"، عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة (زحلق).

ومأجوجُ، والآخرُ ضميرُ المفعول، وهو السّدُّ الّذي بناه ذو القرنيْن بمعونةِ القوم، والظّهورُ هنا بمعنى "الارتقاءِ"[1]، فقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، صريحٌ في أنّ يأجوجَ ومأجوجَ ما أمكنَهم "أن يعلوه، وما قدروا على الصّعودِ عليه؛ لأجل ارتفاعِه وملاستِه"[2]، وفي التّعبيرِ بالضّميرَين هنا، إلماعٌ إلى تغييبِ السّدِّ للعدوّ، وتغييبِه للمؤمنين عن أعدائِهم؛ لأنّ رؤيةَ العدوّ قلقٌ للمؤمن، وفي كلّ ذلك مناسبةٌ لعظيمِ أثرِ ما فعلَه ذو القرنيْن.

دلالةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾:

وجْهُ العطفِ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ على جملةِ ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، هو التّوسُّطُ بين الكمالَين مع توفُّرِ المناسبةِ؛ إذِ الخبران كلاهما يَتحدّثان عنِ السّدِّ، وأحدُهما عن ملاستِه وارتفاعِه، والآخرُ عن عرضِه وشدّتِه.

السّدُّ مانعٌ من كلِّ محاولةٍ للعدوّ تهدّدُ كيانَ المؤمنين

دلالةُ (ما) على اللّزومِ الكنائيِّ في السّياق:

دلالةُ (ما) هنا في قوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾، ومثلُها في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، في كليهما أنّها نافيةٌ، تُقرِّرُ عجْزَ يأجوجَ ومأجوجَ عنِ التّعامل مع هذا السدِّ المنيعِ، وتفيدُ بطريق اللّزوم الكنائيِّ، أنّه بلغَ منَ القوّةِ والارتفاعِ والملاسةِ، ما لا يمكنُ معه اقتحامُه، وأنّ القومَ الّذين طلبوا من ذي القرنيْن بناءَه، قد صاروا به آمنين، من شرِّ أولئك الظّالمين.

العجْزُ عنِ اختراق السّدِّ ثابتُ المنعِ

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾:

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ يُقرِّرُ تَحقُّقَ عجزِ يأجوجَ ومأجوج - مع عُتوِّهم وغلبتِهم وكثرتِهم - عنِ التّغلُّب على السّدِّ خرقًا ونقبًا من أسفلِه، كما تَحقَّقَ بنفي الفعلِ ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ﴾،

عجْزُ يأجوجَ ومأجوجَ مُحقَّقٌ من خلال السّياقِ المُصدّقِ

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 430.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.

عجزُهم عنِ ارتقائِه وتجاوُزِه من أعلاه، وبنفي الفعلَين بصيغتَيْهما الماضيتَين، يقطعُ النّظمُ الكريمُ، بإغلاق هذا البابِ منَ الشّرّ عن هؤلاء القومِ المظلومين، الّذين سخّر ذو القرنيْن إمكاناتِه وإمكاناتِهم لإقامتِه.

سرُّ عدَمِ حذْفِ التّاء منَ الفعل كسابقِه:

محاولةُ النّقبِ أطولُ وأقوَى، فلذلك ناسبَها ذكرُ التّاء

أثبتَ النّظمُ الكريمُ (التّاء) في هذا الفعل ﴿ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾؛ لأنّه فِعْلُ نَقْبٍ ونقب؛ فالتّاءُ تحكي ذلك الثّقلَ وتلك الشّدةَ؛ ففيه منَ المعاناة والتّعثُّرِ ما ليس في ملاسةِ التّسلّقِ، والتّزحلقِ والنّزولِ بعد محاولة الصّعودِ على سطحه الأملسِ، وسبحان من هذا كلامُه!

دلالةُ التّقْييدِ بـ﴿لَهُۥ﴾ وسرُّ تقديمِه في الآية:

بيانُ نفْيِ قدرةِ يأجوجَ ومأجوجَ على نقْبِ السّدِّ أو تجاوُزِه بإطلاقٍ

القيدُ بالجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾، يعودُ على السَّدّ، وهو قيدٌ زائدٌ على بنية التّركيبِ للجملة الفعليّةِ، حيث إنّ الفعلَ (نقب) يتعدَّى بنفسه، فيقال - في غير القرآن -: فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا أن ينقبوه - بدون الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، لكنْ في هذا الجارّ والمجرور، زيادةُ تأكيدٍ لعجزِ يأجوجَ ومأجوجَ، وقُدّم لأنّه مقصودُ يأجوجَ ومأجوجَ بالعمل ظهورًا أو نقبًا، وتنكيرُه يفيدُ التّقليلَ والتّحقيرَ، فينفي تمكُّنَ يأجوجَ ومأجوجَ من إحداثِ أيِّ نقبٍ في السّدّ؛ وذلك "لأجل صلابته وثخانته"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوَّةُ والشّدَّةُ:

القوّةُ هي القدرةُ، والشّدّةُ الصّلابةُ في معالجةِ الأمرِ

"القوَّةُ: القدرةُ نحوَ قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، والتّهيّؤُ الموجودُ في الشّيء"[2]، و"الشّدةُ في الأصل هي مبالغةٌ في

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 500.
(2) الرّاغب، المفردات: (قوى).

وصف الشّيءِ في صلابةٍ، وليس هو من قَبيل القُدرةِ؛ ولهذا لا يقال للّه: شديد"[1]، فالقوّة: القدرةُ، والشّدّةُ: الصّلابةُ.

الرّدمُ والحاجزُ:

"الرَّدْمُ: سدُّ الثّلْمةِ بالحجرِ"[2]، و"الحاجِزُ: ما يَكونُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وسُمّيَ الحِجازُ؛ لأَنَّهُ حَجَزَ بَيْنَ نَجْدٍ والغَوْرِ، وهو مَأخوذٌ مِنْ حَجَزَهُ يَحْجُزُهُ حَجْزًا، أَيْ: مَنَعَهُ وكَفَّهُ، كَأَنَّهُ يَمنَعُ مِنْ وُصولِ أَحَدِ الجانِبَيْنِ إِلى الآخَرِ"[3] فالرّدمُ: سدٌّ بالحجارة وغيرِها، والحاجزُ: الفاصلُ العامُّ.

الرّدمُ سدُّ الثّلْمةِ، أو ملءُ الحفرةِ، والحاجزُ ما يَحجزُ بين الشّيئين

الإفراغُ والصَّبُّ:

"أفرغَ الإناء: أخلاه مِمّا فيهِ، والشَّيْءَ أَلْقاهُ من وعائه، يُقال: أفرغَ الماء، ويُقال: أفرغ الدِّماء: أراقَها"[4]، و"الصَّبُّ يكون دَفعةً واحدةً، ولهذا يقال: صبَّه في القالب، ولا يقال: سكبَه فيه؛ لأنّ ما يُصَبُّ في القالب يُصَبُّ دَفعةً واحدةً"[5].

الإفراغُ إخلاءُ الإناء ممّا فيه دونَ تحديدٍ، والصّبُّ يكونُ في فورٍ واحدٍ

أمّا ما فعله ذو القرنيْن فكان إفراغًا على مراحلَ لا مرّةً واحدةً، حيث "كان يأمرُ بوضع طاقةٍ منَ الزُّبَر والحجارة، ثمّ يوقدُ عليها حتّى تَحمى، ثمّ يؤتَى بالنّحاس المذاب، أوِ الرّصاص أوِ بالحديد - بحسب الخلافِ في المقصودِ بالقطر - فيُفرغُه على تلك الطّاقةِ المنضّدةِ، فإذا التأمَ واشتدَّ، استأنفَ وصفَّ طاقةً أخرى، إلى أنِ استوى العملُ"[6]، فالتّعبيرُ بالإفراغِ يُلفتُ إلى حاجةِ الإنشاءاتِ إلى وقتٍ مناسبٍ؛ لتنضجَ الصّنعةُ وتكتملَ على مهلٍ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 297.
(2) الراغب، المفردات: (ردم) ص350.
(3) ابن بطال، النظم المستعذب (حجز): 1/ 107.
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط (فرغ): 2/ 684.
(5) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 279.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 543.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»